موقف النبى من الشعر والشعراء

آفة الكتابة التزيد ، فقد تكون قضية من القضايا الأدبية أو العلمية واضحة النتيجة ، لا تتطلب الكثير من الإسهاب ، ولكن نفرًا من الكتاب يطيلون القول فى غير مقال ، فيضاعفون الشبهة الواهية حتى تتضخم ، ثم يقرنونها بغيرها ويقفون بذلك أمام أدلة قوية تتعارض معها ، وتدور معركة كبيرة فى التأييد والتفنيد ، فيتسع القول على أصحابه ، وتمضى الأيام ، فيأتى من الكتاب من يتناول القضية عارضًا ما قيل من نقض وتأييد ، ومضيقًا من استنتاجه ما يميل برأى على رأى فيساعد على تضخيم الجدل وتعدد مناحيه . وتتزايد النصوص والنقول لكثرة ما خاص الخائضون حتى تصبح القضية الواضحة فى بادئ الأمر ذات غموض وتعقيد ، قد لفها غبار الجدل وكاد وجه الحقيقة معه أن يضيع .

لق قال الرسول ﷺ : « إن من الشعر لحكمة » ، وهى جملة صريحة يدل منطوقها الواضح ، على أن بين ما يقول الشعراء ما يوصف بالحكمة ذات الرأى الصائب والسداد العاقل ، كما يدل مفهومها المتلمس ، على أن من بين ما يقول الشعراء ما لا يوصف بالحكمة ، بل يذهب مذهب اللغو والأباطيل من حث على اللهو وولوع بما حرم الله من القول ، وهذا هو الجانب البغيض من الشعر ، بل من القول ، شعرًا كان أم نثرًا ، فليست القضية فى ذلك قضية شعر بالذات .

فإذا تركت قول الرسول ﷺ : « إن من الشعر لحكمة » واستمعت إلى قوله الله: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ

كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ ﴾[1] « تجد الشعراء فريقين : فريقًا يهيم فى كل واد بالباطل يتبعهم الغواة من الفاسدين ؛ إذ يطلقون الكلام دون تحرز ، ثم يقولون ما لا يفعلون . وفريقًا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، جاء شعرهم مهتديًا بنور الإيمان ، إذ يذكرون الله كثيرًا فإذا تطرقوا للهجاء ، فليس هجاء البادئ المعترض ولكنه دفاع عن ظلم نزل ، إذ انتصروا لأنفسهم ممن تناولوهم بالسباب بغيًا دون عدل » .

فالحديث النبوى والآية القرآنية ، واضحان صريحان فى تحبيذ اتجاه عاقل ، ومعارضة اتجاه سفيه . هذه الصراحة الواضحة لا تدعو إلى أن نشن الغارة على الشعر قاطبة بدليل أن الشعراء يتبعهم الغاوون .

ولكن الذين تحدثوا عن موقف الرسول من الشعر ، لم يحسموا الأمر حسمًا واضحًا يقطع كل شىء . ولكنهم تعارضوا وتناقضوا ، وأخذ كل ببعض الأدلة النقلية يرمى بها فى وجه صاحبه ، ولم تكن المعركة بين الأدباء وحدهم ؛ إذ لو اقتصرت على ناقدى الأدب لبان وجه الحق من أقرب طريق ، ولكنها انتقلت إلى رجال التفسير تعقيبًا على آيات القرآن . وإلى رجال الحديث استنباطًا من بعض الآثار ، وإلى رجال السيرة تعليقًا على بعض المواقف . وفى هؤلاء : المتزمت المتشدد، والمستنبط اليقظ الميسر ، فدارت الرحى بين الفريقين ، وهى بعد حرب فى غير ميدان. وما زال الخلاف قائمًا حتى يومنا هذا ؛ إذ إن المغفور له الأستاذ (فكرى يس) قد كتب تفسيرًا بمجلة الأزهر لحديث رسول الله : « إن من الشعر لحكمة » فقال فيما يقال[2] :

« ويتلخص ما قاله العلماء فى حكم الشعر فى الإسلام فى مذهبين ، فذهب قوم إلى كراهة الشعر مطلقًا ، قليلة وكثيرة ، حسنة وقبيحة – واحتجوا بآثار رواها

(١) سورة الشعراء : ٢٢٤ - ٢٢٧ .

(٢) « مجلة الأزهر » السنة الحادية والعشرون ، ص ٢٩٧.

الأستاذ ، وسنعرض لها فيما بعد – وذهب قوم إلى إباحة الشعر ما لم يكن فيه فحش أو هجو أو إغراق فى المدح ، أو كذب محض أو تغزل بمعين » .

هذا الكلام عن انقسام العلماء إلى مذهبين فى حكم الشعر فى الإسلام . ما كان يجب أن يبقى على وضعه هكذا ، بعد أن درست النصوص النبوية والآيات القرآنية، ومواقف الرسول فى سيرته دراسة توجب لنا أن نحكم ببطلان رأى ، وبصحة رأى آخر ، بحيث لم يعد مجال للقول بأن هناك رأيين . وفيم تسجيل ذلك ، والآثار بين أيدينا نواطق بما لا يحتمل الشك ؟ ولنا أن نستعرض مختلف الآيات والأحاديث ، والمواقف النبوية استعراضًا محللاً ، فإذا رأينا أنها جميعًا تسير فى خط واحد لا فى خطين متقابلين كان لنا أن نعلن أن رأى القرآن واحد فى الشعر وأن موقف الرسول واحد من الشعر ، بحيث لا يكون هناك مجال بعد الآن للقول بكراهية الشعر : قليله وكثيره ، حسنه وقبيحه كما ذهب بعض الناس .

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾[1] ، ويقول : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾[2] .

هاتان هما الآيتان اللتان يتمحل بهما القائلون بكراهية الشعر ، والآية الأولى رد على قول المشركين عن محمد أنه شاعر وأن ما أتى له شعر مما يقول الشعراء ، فهى مثل قول الله فى سورة الحاقة : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾[3] . فهى

(١) سورة يس : ٦٩ .

(٢) سورة الشعراء : ٢٢٤ - ٢٢٧ .

(٣) سورة الحاقة : ٣٨ - ٤١ .

لا تفيد كراهية الشعر . وإنما تربأ بالقرآن أن يكون شعرًا من جنس ما يقوله الشعراء. فالقرآن الذى تحدى الله فصحاء العرب أن يأتوا بسورة من مثله لا يسمو إليه ما يقولونه من الشعر ، فقولهم : إن محمدًا شاعر فيما يتلو عليهم من الذكر يدحضه أن الله لم يعلمه الشعر الذى تنسبونه إليه ، وقد استنبط (ابن رشيق) من ذلك أن هذا النص القرآنى يوحى بتعظيم الشعر لا بتحقيره ، لأن القرآن بسرده المحكم قد ارتفع عن أجمل نسق تتيه به العرب من القول وهو الشعر ، فلولا أن الشعر مظنة التأثير والإبداع ما نسب هؤلاء الفصحاء قرآن محمد إليه ، يقول (ابن رشيق) فى العمدة[1] :

« ولعل بعض الكتاب المنتصرين للنثر الطاعنين على الشعر يحتج بأن القرآن كلام الله تعالى منثور ، وأن النبى ﷺ غير شاعر لقول الله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ ويرى أنه قد أبلغ فى الحجة وبلغ فى المحجة ، والذى عليه فى ذلك أكثر مما له ؛ لأن الله تعالى إنما بعث رسولاً أميًّا غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك حين استوت الفصاحة ، واشتهرت البلاغة آية للنبوة ، وحجة على الخلق ، وإعجازًا للمتعاطين ، وجعله منثورًا ليكون أظهر برهانًا لفضله على الشعر الذى من عادة صاحبه أن يكون قادرًا على ما يحبه من الكلام ، وتحدى جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم ذلك ، فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة ، والمترسلين وليس بترسيل ، وإعجازه الشعراء أشد برهانًا، ألا ترى كيف نسبوا النبى ﷺ إلى الشعر لما غلبوا وتبين عجزهم ، فقالوا : هو شاعر لما فى قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته ، وأنه يقع منه ما لا يلحق ، والمنثور ليس كذلك فمن هنا قال الله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ أى لتقوم عليكم الحجة ويصح قبلكم الدليل .

(١) « العمدة » ، ج ١ ، ص ١٢.

أما الآية الثانية : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ فقد سبق أن أشرنا إلى أن تمامها يوحى بأن القوم فريقان : فريق يخبط فى الباطل ، وفريق يهتدى بالحق ، والشعراء ليسوا وحدهم كذلك من أصحاب البيان ؛ فالخطباء والكتّاب والقصّاص ممن يجوز أن يلحقهم التقسيم لتنوع إنتاجهم بين الحق والضلال ، فلو جاز لنا أن نحكم بكراهية الشعر أصلاً لانحطاط بعض أغراضه ، لجاز لنا أن نحكم بكراهية جميع ألوان البيان لاتحاد العلة . ولا أظن عاقلاً منصفًا يميل إلى ذلك ، وقد أفصح (ابن رشيق) عن وجه الآية حين قال ما نصه[1] :

« أما احتجاج من لا يقيم وجه الكلام بقوله تعالى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ فهو غلط وسوء تأول ؛ لأن المقصودين بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله ﷺ بالهجاء ومسوه بالأذى ، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل فى شىء من ذلك . ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ، ونبه عليهم فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ يريد شعراء النبى ﷺ الذين ينتصرون له ويجيبون المشركين عنه (كحسان ابن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة) » . هذا قوا ابن رشيق ، أما (الجاحظ) فقد أطلق القول دون تحديد ؛ إذ قال تعقيبًا على الآية الكريمة : « فمن الخصال التى ذمهم بها ؛ تكلف الصنعة ، والخروج إلى المباهاة ، والتشاغل عن كثير من الطاعة ، ومناسبة أصحاب التشديق ، ومن كان كذلك كان أشد افتقارًا من السامع إلى السامع إليه لشغفه أن يذكر فى البلغاء وصبابته باللحاق بالشعراء ، ومن كان كذلك غلبت عليه المنافسة والمغالبة ، وولد ذلك فى قلبه شدة الحمية وحب المحاربة ، ومن سخف هذا السخف وغلب الشيطان عليه هذه الغلبة كانت حاله داعية إلى قول الزور والفخر بالكذب »[2] .

---

(١) العمدة ، ج ١ ، ص ١٢ .

(٢) « البيان والتبيين » ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ ، ص ١٣ .

وكلام الجاحظ لا يُحمل إلا على الفريق الأول ممن يهيمون فى كل واد . على أنه لا يخص الشعراء وحدهم ، فخطباء الجاهلية كانوا يتفاخرون بلسان القبائل حبًّا للغلب والمباهاة ، وهم بذلك كالشعراء أشد افتقارًا من السامع إلى السامع إليهم لشغفهم بادعاء الفصاحة وامتلاك البيان . وإذًا ، فالذم لا يلحق فنًّا بعينه كالشعر أو أناسًا بأعينهم كالشعراء ، وإنما يلحق كل قائل جمح فاشتط وهام فى كل واد .

ونحن إذا انتقلنا من أدلة القرآن إلى أدلة الحديث ، لا نجد إلا حديثًا واحدًا أولع به القائلون بكراهية الشعر ، وهو ما روى من قول رسول الله ﷺ عن أبى هريرة : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا فيريه ، خير له أن يمتلئ شعرًا » وقد ظل هذا القول يتردد فى كتب الحديث هكذا ناقصًا مبتورًا حتى طبع كتاب (الزركشى) المسمى : « بالإجابة لا يراد ما استدركته عائشة على الصحابة » فإذا فيه أن عائشة رضى الله عنها قالت مستدركة على الراوى : « لم يحفظ أبو هريرة الحديث إنما قال رسول الله : لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا ودمًا خير له من أن يمتلئ شعرًا هجيت به » . وقد ذكر (عبد القاهر) حديث أبى هريرة ناقصًا فى دلائل الإعجاز ، فعلق عليه (السيد محمد رشيد رضا) بقوله فى أحد هوامشه ص ١٣ .

وفى رواية ابن عدى عن جابر : « لأم يمتلئ جوف الرجل قيحًا أو دمًا خير له من أن يمتلئ شعرًا مما هجيت به » فاتفقت روايتا عائشة وابن عدى على تصحيح ما قاله أبو هريرة ، وسقط بذلك الدليل الوحيد من قول الرسول على كراهية الشعر مما استند إليه مبغضوه ، وقد كان محمد ﷺ من رقة الإحساس ونبل الشعور بحيث يبغض كل هجاء ظالم وجه إليه أو لغيره ، فليست الكراهة لديه نزعة ذاتية تخص ما قاله المشركون فى هجائه ظلمًا ، بل تشمل كل هجاء ظالم ، وقد روى (الشيخ عبد القاهر) فى دلائل الإعجاز حديث (محمد بن مسلمة) الأنصارى إذ قال : « كنا يومًا عند النبى ﷺ ، فقال لحسان بن ثابت : أنشدنى قصيدة من شعر

الجاهلية ، فإن الله تعالى قد وضع عنا آثامها فى شعرها وروايته فأنشده قصيدة للأعشى هجا بها علقمة بن علاثة :

علقم ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر

فقال النبى ﷺ : يا حسان ، لا تعد تنشدنى هذه القصيدة بعد مجلسك هذا ، فقال : يا رسول الله ، تنهانى عن رجل مشرك مقيم عند قيصر . فقال النبى ﷺ : «يا حسان ، أشكر الناس للناس أشكرهم لله تعالى ، وإن قيصر سأل (أبا سفيان ابن حرب) عنى فتناول منى – وفى خبر آخر فشعت منى – وإنه سأل هذا عنى فأحسن القول »[1] فالرسول ينبه حسانًا فى رفق ألا ينشد هجاء فيمن أظهر فى بعض مواقفه صدق الحديث ونزاهة الضمير .

أما الأحاديث التى رويت عن رسول الله فى تحبيذ الشعر ، فإنها إذا ضمت إلى مواقفه المتعددة من الشعراء لعهده أفصحت عن موقفه المؤيد لكل ما سلك سبيل الحق من الشعر ، ودلت على مكانة هذا الفن من نفسه ، وشعوره القوى برسالته القادرة فى التأثير والاستمالة والإقناع .

فحين بدأ شعراء الشرك حملتهم على المسلمين ؛ إذ انطلق (عبد الله بن الزبعرى وعمرو بن العاص وأبو سفيان بن الحارث) يهجون الرسول ويذمون الإسلام ، جمع محمد الأنصار وقال فيهم :

« ما يمنع الذين نصروا الله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ، فنهض (حسان ابن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة) لمناقضة هؤلاء الطاعنين الهاجين ، وليس فى ذلك خروج عن سنن الإسلام ؛ لأن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ، وقد ظُلِم المسلمون حين قام شعراء الشرك بدعايتهم المسمومة ضدهم ، وليس شىء أشهر ذكرًا ولا أمضى سيرًا من الشعر ، فكان من حق الدعوة

(١) « دلائل الإعجاز » ، ص ١٦ وقد خرج السيد رشيد الحديث بهامشه .

الجديدة أن ينافح عنها قادة الشعر بما يرد على المشركين كيدهم ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾[1] .

أقام الرسول منبرًا لحسان ، وأمره أن ينشد فى الدفاع عن دينه ، وكان حسان أشد زملائه عارضة ، وأقوى المسلمين بيانًا ، فأخذ يترصد كل ما يقوله شعراء مكة ليأتى على بنيانه من القواعد ، فإذا بكى (ابن الزبعرى) صرعى بدر من المشركين ناقضه ابن ثابت بقصيدة من الوزن والقافية ، وإذا شمت (ابن الزبعرى) بالمسلمين بعد أحد لم ينس أن يعرض بحسان فيقول فى قصيدة :

يا غراب البين أسمعت فقل ... إنما تنطق شيئًا قد فعل

أبلغا حسان عنى آية ... فقريض الشعر يشفى ذا الغلل

فيرد عليه حسان مناقضًا بقوله من قصيدة طويلة :

نزلت بابن الزبعرى ضربة ... كان منا الفضل فيها لو عدل

ولقد نلتم ونلنا منكم ... وكذلك الحرب أحيانًا دول

وإذا قدمت الوفود مفاخرة رسول الله وقام (الزبرقان بن بدر) يقول فى قصيدته :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع

بعث رسول الله إلى حسان فيأتى عجلاً ليرد بقصيدته :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع

قال الشعبى : « لما كان عام الأحزاب ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا قال النبى ﷺ : من يحمى أعراض المسلمين ؟ فقال كعب بن مالك : أنا يا رسول الله ، وقال عبد الله بن رواحة : أنا يا رسول الله ، وقال حسان بن ثابت : أنا يا رسول الله ، فقال : نعم اهجهم أنت ، فإنه سيعينك عليهم روح القدس »[2] .

---

(١) سورة الشورى : ٤١ .

(٢) « دراسات فى الأدب الإسلامى » ، ص ٥٦.

كما أن رسول الله لم يترك حسانًا لمعرفته الضئيلة بمثالب المشركين ، فتأتى نقائضه واهية ضعيفة ، فعهد إلى أبى بكر العالم النسابة أن يحدثه حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، فملأ وطابه من كل ذلك ، وجاء شعره قاسيًا قارصًا ، فكانت قريش إذا أنشدت شعره قالت : « إن هذا الشتم ما غاب عنه ابن أبى قحافة » وكان محمد يطيل الاستماع إليه ثم يقول : « لهو أشد عليهم من وقع النبل ، وروى أنه قال: أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى[1] ، ونظرًا لمكانة حسان من الدعوة كان حين يقع فى هنات مخطئة يجد الصفح السريع من رسول الله ، فلو قام غيره مقامه فى حادث الإفك ما وجد الصفح السريع من رسول الله كما وجده حسان . وأخرى زلت بها قدمه إذ جمحت به أنصاريته ، فجلس مع أصحاب له فوق بساط على أطمة فارع متضايقًا لكثرة من يأتى النبى من العرب فيسلمون ، ثم يضيع فى غمارهم الأنصار كما توهم ، وكان مما قال فى ذلك :

أمسى الخلابيس قد عزوا وقد كثروا وابن الفريعة أمسى بيضه البلد

فبلغ ذلك محمدًا ﷺ فقال متضايقًا : من لى بأصحاب البساط بفارع : وعلم حسان بتضايق رسول الله فجاء نادمًا يستغفر إليه ، فأعرض عنه مرتين حتى جاء الثالثة يحمله أصحابه فقال : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى . احفظ قولى :

هجوت محمدًا فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

فرضى عنه رسول الله ، ووهب له سيرين أخت مارية[2] ، ولولا ما أسلفه من جميل الدفاع ما سارع النبى بالعفو . بل إنه ﷺ يوم فتح مكة أمر الزبير بن العوام أن يدخلها مع بعض الجنود من كداء ، وسئل فى ذلك فأجاب تحقيقًا لقول حسان :

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موقعها كداء

(١) « دراسات فى الأدب الإسلامى » ، ص ٣٥ للأستاذ محمد خلف الله .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤.

والكلام عن حسان يطول إذا أرخيناه ، فلنكتف بما أسلفناه .

أما ابن رواحة فقد كان الرسول يستشهد بشعره ويردد أراجيزه ، وكان يصغى إلى كعب بن مالك مثنيًا عليه بالجميل ، وثلاثتهم مسلمون كرام من الأنصار . فاحتفاء الرسول بهم مما توحيه طبائع الأشياء . ولكن احتفاءه ﷺ بغيرهم من الشعراء ، لا لشيء إلا لكونهم شعراء فقط مما ينفعنا فى هذا الصدد ، وإليكم الأمثلة:

١- كان (أبو عزة الجمحى) الشاعر مملقًا مقترًا ، وذا عيال أطفال ، وقد أسر فى بدر كافرًا فأتى رسول الله واستشفعه بأبيات قال فيها :

ألا أبلغا عنى النبى محمدًا بأنك حق والمليك حميد

وأنت امرؤ تدعو إلى الرشد والتقى عليك من الله الكريم شهيد

فعفا عنه وأطلقه . وغفر له ما أسلف .

٢- وكان (قيس بن الحطيم) شاعر الخزرج مقيمًا على الشرك بالمدينة ، وقد أسلمت امرأته (قبل لأن ينزل تحريم نكاح المشركين للمسلمات) فقال له النبى : إن امرأتك قد أسلمت ، ولا أحب أن تؤذيها ، فقال قيس : نعم يا أبا القاسم ، لست بعائد فى شيء تكرهه ، واكتفى الرسول بعهده دون أن يرهقه بما هو أكثر تجلة لمكانته الشعرية .

٣- أتعب (ابن الزبعرى) نفسه فى هجاء المسلمين بمكة ، ثم جاء بعد الفتح نادمًا ضارعًا يقول :

يا رسول المليك إن لسانى راتق مافتقت إذا أنا بور

آمن اللحم والعظام بما قلت فنفسى الفدا وأنت النذير

فعفا عنه الرسول وصان دمه ، بعد أن سرت أهاجيه فى الآفاق .

٤- أما (أمية بن أبى الصلت) فقد حسد الرسول ونابذه العداء ونزل فيه قول الله :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾[1] .. وما زال يهجو محمدًا ويرثى قتلى بدر .. ومع هذا .. فقد كان الرسول يستنشد شعره ، ويقول : آمن لسانه وكفر قلبه ، وفى رواية البخارى : (وكاد أمية ابن أبى الصلت) أن يسلم بل إن الرسول قد استشهد بقوله :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألما

ولو كان يكره الشعر لذات الشعر لأعرض عن شعر أمية على الأقل وهو حاقده اللدود .

٥- لما قتل النضر بن الحارث يوم بدر ، رثته أخته (قتيلة) بقصيدتها الشهيرة :

يا راكبًا إن الأثيل مظنة من صبح خامسة وأنت موفق

وبها عتاب كريم لمحمد ، فبلغه ﷺ فسمعها متأثرًا ثم قال : لو جاءت قبل مقتله ما قتل .

٦- أما قصيدة بانت سعاد (لكعب بن زهير) ، ففى غير حاجة إلى التنويه بها ، إذ بلغت مبلغها من نفس محمد ، ونادى الأنصار لاستماعها ثم من عليه ومنحه بردته الشريفة فى قصة تطول ، فكانت مصدر فخره فى الحياة ، ومنبع ثراء أسرته بعد الوفاة إذ اشتراها معاوية بمال كثير . وأما إلمام محمد بقصائد الشعر فقد تحدث عنه الرواة بما يؤكد التفاته إلى القريض التفات اليقظ الدارس ، والأخبار

(١) سورة الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦ .

فى ذلك مستفيضة ذائعة ، ولكننا ننقل من ذلك عن دلائل الإعجاز وحده ما يقع موقع الاستدلال ، وسواه كثير كثير .

لا ريب أن أفصح الفصحاء قد ركب فى طبعه تمييز جيد القول من رديئه ، فهو إذا استمع إلى – كلام ما – عرف مواضع الارتقاء ، ومزالق الهبوط فيما يسمع ، والشعر لا يعدو أن يكون بيانًا عربيًّا يعرفه الفصيح ، ويتابعه راصدًا مواضع الجودة، ومساقط الزلل ، وقول الرسول عن نشأته الأولى قبل البعثة أن الشعر كان مبغضًا إليه ، لا يعنى إلاّ أن نظمه كان مما يعاف لديه ؛ إذ يجد فاصلاً شاسعًا بينه وبين مزاولته ، وتلك آية المعجزة فى نشأته ، لأن الله قد صرفه عن ولوج هذا الباب لما يعلم من إعداده الخاص لإبلاغ كتاب سماوى يشتبه على الناس بالشعر وليس به فإذا قالوا – فيما بعد – إنه شاعر فلن يجدوا من سابق حياته ما يؤيد زعمهم فى شىء، وإذا كان شعر الجاهلية قد جمع الخبيث والطيب ، فإن صاحب الدعوة الكبرى إلى تطهير النفوس لن يقبل شعر الهجاء والمثالب ، وإنما يميل إلى استماع نمط من البيان يترفع عما يؤذى الخلق ، وينال الكرامة ، وفى الآثار عن رسول الله ما يدل على إلمامه الكثير بطرائف الشعر ، وأقوال الشعراء مما يندرج فى هذا النطاق ، وإلى بعضها نشير :

١- حين شحت السماء ذات ربيع ، وصلى محمد صلاة الاستسقاء ، داعيًا ربه ، لم يكد يفرغ من دعائه حتى تدفق المطر كأفواه القرب ، وكانت السماء . قبل ذلك صحوًا ما ترى بها قزعة ، فنظر رسول الله إلى أبى بكر وسأله مبتسمًا : ماذا قال الشيخ ؟ يريد أبا طالب فأنشده أبو بكر قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يطوف به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده فى نعمة وفواضل

٢- ولما انتهت معركة بدر ، نظر رسول الله ﷺ إلى قتلى المشركين مصرعين ، فقال لأبى بكر رضى الله عنه : لو أن أبا طالب حى لعلم أن أسيافنا قد أخذت بالأماثل، مشيرًا عليه الصلاة والسلام إلى قول أبى طالب :

وأنا لعمر الله إن جد ما أرى ... لتلتبس أسيافنا بالأماثل

ويـنهض قوم فى الحديد إليكم ... نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل

٣- أنشدت (سودة بنت زمعة) قول الشاعر : « عدى وتيم تبتغى من تحالف » فغضبت عائشة ؛ لأنها من عدى وطال جدال بينهن ، فأخبر النبى ﷺ فدخل عليهن قائلاً : « يا ويلكن ليس فى عديكن ولا تيمكن قيل هذا ، وإنما قيل فى عدى تميم وتيم تميم ، قال عبد القاهر وتمام هذا الشعر :

فحالف ولا والله تهبط تلعة ... من الأرض إلا أنت للذل عارف

ألا من رأى العبدين أو ذكرا له ... عدى وتيم تبتغى من تحالف

٤- وروى (الزبير بن بكار) قال مر رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر رضى الله عنه فسمع رجلاً ينشد فى بعض أزقة مكة :

يا أيها الرجل المحول رحله ... هلا نزلت بآل عبد الدار

فقال النبى : يا أبا بكر ، أهكذا قال الشاعر. قال : لا يا رسول الله ، ولكنه قال:

يا أيها الرجل المحول رحله ... هلا نزلت بآل عبد مناف

فقال ﷺ : هكذا كنا نسمعها .

فلا مجال للنزاع بعد ذلك فى أن نبى الإسلام قد سمع الشعر ووعاه وحكم عليه ، بعد أن استفاضت فى ذلك الأقاويل وكثر الاستشهاد .

ويسلمنا هذا الحديث إلى قضية أخرى بالغة الأهمية إذا استفاضت روايات مدخولة تنص على أن رسول الله ﷺ كان لا يقيم وزن الشعر حين ينشده ، فإذا أنشد مثلاً قول طرفة :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

أنشده هكذا :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك من لم تزود بالأخبار

وإذا أنشد قول العباس بن مرداس :

أتجعل نهبى ونهب العبيد ... بين عينيه والأقرع

أنشده هكذا :

أتجعل نهبى ونهب العبيد ... بين الأقرع وعينيه

تنص الروايات المدخولة على ذلك وأنا أقرأها فأتساءل ؟ أيكون أفصح خلق الله لسانًا ، وأنصعهم بيانًا غير قادر على إلقاء بيت من الشعر .. وهل قول الله : ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى** ﴾ ينصب على الإلقاء كما ينطبق على التأليف ، فيكون إنشاء الشعر سبيلاً إلى تأليفه ، ثم هل كل راو للشعر ملم بصحة أوزانه وقوافيه شاعرًا ينظم القصائد بمجرد روايته وحفظه . أسئلة تتوارد على ذهنى دون أن تجد الإجابة المقنعة . والأنكى والأدهش أن يتخذ هذا الحصر الشائن دليلاً على نبوة رسول معجزته الفصاحة والبيان ، وحجته المنطق واللسان ، هذه الروايات المدخولة التى تناقلها المؤلفون لاحقًا عن سابق تدفعنا إلى مناقشتها بالدليل .

وأبادر فأعلن مقدمًا : إنى أتحدث عن الإنشاد وحده ، أما تأليف الشعر فلا مجال للخلاف فى تحريمه على النبى ، فأنا معترف بأن ما ورد من مثل قوله :

أنا النبى لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

وقوله :

هل أنت إلا إصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

فإنما جرى ذلك على لسانه عفوًا بادئًا دون ارتصاد لنظمه أو احتشاد لصوغه . ونظيره فى ذلك ما جاء بالقرآن من بعض الآيات التى يمكن أن تنسب إلى بحر من البحور دون أن تساق مساق الشعر بحال . فهى فى موقعها من الكتاب الحكيم نثر صريح لا يأتيه الشعر من قريب أو بعيد ، كذلك ما جاء عفوًا من كلام الرسول .

وقد أسلفنا القول بأن الرسول قد انصرف عن النظم كيلا يظن ظان أن كتاب الله شعر يتدفق على لسان شاعر ، فشاء الله أن يكون رسوله هاديًا بخطبة وداعية إليه بأحاديثه ، فهو لا ينظم ولا ينمق ، إذ إن صاحب الدعوة فى حاجة إلى توضيح مذهبه وإرشاد قومه ومناقشة خصومه ببيان وضاح ، لا يجنح به الشعر عن الدقة والتحديد إلى المبالغة والإغراق ، ولا يميل به عن الواقع المشاهد إلى الخيال الشارد ، فإذا كان فى كلامه تأثير أخاذ فهو تأثير الحق الأبلج والمنطق السديد ، واللفظ المحكم ، وليس تأثير القافية الخلابة ، والبحر الصادح ، ولا نعنى بذلك أن نثر محمد ﷺ بعيد عن التأثير الوجدانى ، والإيقاع الموسيقى ، بل نقول : إن الشعر ميدان ذلك وموضوعه ، فصاحبه غير مطالب فى أكثر أحواله بالتزام التدقيق . تلك مشيئة الله فى بُعد محمد ﷺ عن نغم القصائد ورنين الأوزان ، ولكن ما مشيئته فى أن يكون رسوله غير قادر على إنشاد بيت من الشعر قاله شاعر سواه :

لنسمع ما يقوله الأديب الكبير (مصطفى صادق الرافعى) فى تعليل ذلك[1] :

(والذى عندنا أنه ﷺ لم يمنع إقامة وزن الشعر فى إنشاده ، إلا لأنه منع من إنشائه ، فلو استقام له وزن بيت واحد لغلبت عليه الفطرة القوية ، فمر فى الإنشاد وخرج بذلك لا محالة إلى القول والاتساع وإلى أن يكون شاعرًا ، ولو كان شاعرًا

(١) « إعجاز القرآن » ، ص ٣٤٢.

لذهب مذاهب العرب التى تبعثه عليها طبيعة أرضهم ، ثم لا يكون من جملته إلا أن ينصرف عن الدعوة وعما هو أزكى بالنبوة ، وأشبه بفضائل القرآن ، لأنه تعالى يعلم من غيب المصلحة لبعاده أنه ﷺ لو أقام وزن بيت ، لمال به عمود الدين ثم لتصدع له الأساس الاجتماعى العظيم الذى جاء به القرآن) .

وكلام الأستاذ الرافعى – رحمه الله – هو لباب ما يقوله رفقاؤه ممن يذهبون إلى عدم استقامة الإنشاد على لسان الرسول ، وقد حرصنا أن ننقل عنه دون غيره ؛ لأنه أفصح بيانًا من سواه ، ونحن نعجب كل العجب لقوله : إن إلقاء بيت صحيح أدعى إلى نظم مثله ، لأننا نرى من كبار أساتذة الأدب فى أرقى كلياته ومعاهده من ينشدون آلاف الأبيات الصحيحة ، فضلاً عن حفظها ثم لا يستطيعون أن ينظموا بيتًا واحدًا من الشعر ، فكيف يكون إنشاد البيت الصحيح مدعاة النظم الصحيح ، وكيف يقول الكاتب البليغ أن الرسول لو أقام وزن بيت لأمال به عمود الدين ، إذ ينصرف إلى الشعر تاركًا ما عداه ، هذا أبو بكر كان راوية شعر ، وهذا عمر كان ناقدًا يوازن بين الشعراء فما شغلهما ذلك عن إقامة دولة إسلامية فى بلاد الفرس والروم ذات أمجاد وفتوح . ألا تعجب لرسول الله أن تحضر مجلسه وفود العرب من شتى القبائل ونازح الأصقاع ، فيحدثها أفصح حديث وأشهاه ، ثم يستشهد ببيت شعر لطرفة مثلاً فيخرج على لسانه مختل الأجزاء مضطرب الألفاظ ، وهل سيصدق هؤلاء – وفيهم أعداؤه – أنه يكسر البيت كيلا يقدر على نظم مثله فيصير شاعرًا ، وهم يرون خطباءهم يرمون بالخطب الطوال ، ويستشهدون بأبيات تؤكد معانيها وأغراضها ، فلا يلحقهم هذا الاستشهاد الصحيح بطوائف الشعراء ، إن مدرس المرحلة الابتدائية يستمع إلى طفل صغير يلقى قطعة من المحفوظات فيتقزز ويتضايق حين يجده يبدل لفظًا مكان لفظ ، وهو بعد طفل ، فماذا يكون شعور القادمين من وفود القبائل ، إذ يرون أفصح البلغاء لا يقيم بيتًا فى إنشاده . لو صح ما تقوله هذه الروايات .

على أن (عبد القاهر) قد لجأ فى هذا المأزق إلى تعليل غير تعليل الرافعى فقال[1]:

« ويبقى أن يعلم أن ليس المنع فى ذلك منع تنزيه وكراهة ، بل سبيل الوزن فى منعه عليه الصلاة والسلام إياه سبيل الخط حين جعل عليه الصلاة والسلام لا يقرأ ولا يكتب فى أن لم يكن المنع من أجل كراهة كانت فى الخط ، بل لأن تكون الحجة أبهى وأقهر والدلالة أقوى وأظهر ، ولتكون أعكم للجاحد ، وأقمع للمعائد » ونحن نفهم أن تكون الحجة أبهى وأقهر والدلالة أقوى وأظهر إذا كان الرسول غير شاعر ، وجاء بما أعجز الشعراء ، ولكن أية حجة فى أن يكسر البيت فيلحقه من سامعيه ما يشين . لا عيب عند العرب إطلاقًا – ولا عند غيرهم – ألا تكون شاعرًا. فالشعراء قلة بين من سواهم فى كل زمان ، ولكن العيب كل العيب أن تنطق بيتًا من الشعر فلا تقيمه وأنت رجل كسائر الرجال ، فكيف إذا كنت أفصح البلغاء . أخال الذين يحرصون على نسبة ذلك إلى الرسول يتعبدون بالروايات المنقولة دون تمحيص .

لقد رأينا كتب السيرة تجمع على أن رسول الله قد أنشد أبياتًا صحيحة من الرجز (لعبد الله بن رواحة) يوم الخندق ، فماذا يصنع المنكرون فى هذا الإجماع ؟ لنسمع الأستاذ الرافعى يقول فى كتابه السالف[2] :

« إن الرجز فى أصله ليس بشعر ، وإنما هو وزن السجع ، وهو يتفق للصبيان والضعفاء من العرب يتراجزون به فى أعمالهم ، وفى لعبهم ، وفى سوقهم ، ومثل هؤلاء لا يقال لهم شعراء » .

ونحن على علم أن الرأى الغالب بين العلماء : أن الرجز بحر من بحور الشعر، فإذا مال الأستاذ الرافعى إلى عده من غير الشعر ، فلنأخذ من قوله حجة عليه ولنقل

(١) « دلائل الإعجاز » ، ص ٢٢.

(٢) « إعجاز القرآن » ، ص ٣٤.

له : لقد أنشد رسول الله رجز (ابن رواحة) إنشادًا صحيحًا أكثر من مرة ، فلماذا لم يكن إنشاد الرجز سبيلاً إلى نظمه حتى يتخوف من إنشاد الشعر الصحيح ، ولماذا لم يقل أعداؤه من كفار العرب أنه عليه الصلاة والسلام صار رجّازًا لأنه أنشد أبياتًا صحيحة من الرجز دون كسر واعوجاج ؟ لقد روى البخارى ومسلم أبيات (ابن رواحة) ، ونقلها ابن كثير فى البداية والنهاية [1] ، فهل نجد بعد ذلك مبررًا للفرق بين الرجز والشعر عند المانعين .

لقد وقع هؤلاء المنكرون فى مأزق حرج حين وجدوا الرسول يقول أصدق كلمة قالها لبيد :

« ألا كل شىء ما خلا الله باطل » فهبوا ينتحلون المبررات ويزعمون أن ذلك ليس شعرًا ، لماذا . لأنه ﷺ لم يكمل البيت . وإذًا فقد تحول الشطر المظلوم من الشعر إلى النثر دون إمهال ، مع أن من يسمعه منفصلاً عن عجزه يعلم أنه شطر تام من بيت شعرى شهير ، فهو شعر لا محالة ، ونحن نستشهد فى مقالاتنا وخطبنا بأشطار من الأبيات تجرى مجرى الأمثال بل نستشهد أحيانًا ببعض الشطر لا كله ، فلا يمنع ذلك أحدًا أن يقول إنه استشهاد بالشعر ، وهبنى قلت فى كلمة ما « وإنما الأمم الأخلاق » فقط أفلا يطير ذهن القارئ إلى شوقى مدركًا أنى استشهدت بشعره . إنما يكون الشطر الواحد غير شعر إذا أنشأه المتكلم إنشاد فى حديثه عن غير قصد فجرى على لسانه موزونًا كما جاء الوزن عفوًا فى بعض آيات القرآن ، هنا نقول بحق: هذا ليس بشعر ، أما أن نقول ذلك عن شطر طائر الصيت تتناقله الألسن عن لبيد فذلك ما لا يستقيم .

إن الحديث عن سلامة الشعر المنشد على لسان رسول الله حديث عن تمام فصاحته وكمال بلاغته وهما فى غير حاجة إلى تدليل .

---

(١) ج ٤ ، ص ٩٦.